مراعاة المخاطب والمقام في النحو القرآني

د. هناء محمود اسماعيل
جامعة بغداد – كلية التربية للبنات

الخلاصة:

تكشف هذه الدراسة عن أساس مهم من أسس النحو القرآني التي أسس لها القدماء وهو مراعاة المخاطب والمقام في النحو القرآني . فكان البحث محاولة متواضعة في بيان عمق البحث النحوي القرآني عند القدماء في تحليل النص القرآني. لذا استقصى البحث جهود النحويين الاوائل في اعتماد هذه الأسس في بناء الأحكام النحوية واستقراء قواعد النحو العربي.

المقدمة

نال موضوع المخاطب والمقام اهتماماً كبيرًا في الدرس اللغوي , فظهرت عناية البلاغيين بوجوب مراعاة المتكلم لأحوال المتكلمين(1),و"ما يجب لكل مقام من المقال" (2).

كما اتجه الدرس اللغوي الحديث نحو التداولية في النص باعتماد قرائن السياق والمقام(3).

والمُتمعن في الموروث النحوي يجد أن دوافع فهم القرآن الكريم ومعرفة أسراره وفهم تراكيبه, وبيان أثرها في الأحكام التشريعية قد أدت إلى إيجاد النحو الذي استنبط من أساليب القرآن ونظمه وهو (النحو القرآني)(4), أو (نحو القرآن الكريم)(5). فقد اتضح وجود اتجاه معنوي في الدرس النحوي عند القدماء يعتمد النص القرآني المصدر الأول له,ويقصد من النحو هدفًا أكثر عمقًا وشمولًا وهو: قواعد بناء الكلام,ونظمه,وعوارض تأليف الجمل كالتقديم والتأخير,والحذف والذكر,والفصل والوصل(6).

وكشفت جهود النحويين الأوائل عن سبقهم في اعتماد الأسس المعنوية والفكرية في تحليل النص القرآني وتعليله ومنها : العناية بالنص القرآني,وترابط عناصره,وعلاقة النص بالنظام اللغوي وبمنشئه وبمتلقيه ,وبقرائن المقام والحال. وهذه الأسس المعنوية مثلت صورة من صور (نحو النص) باصطلاحه المعاصر.

فكان البحث عن المعاني المحور الأساسي الذي دارت حوله بحوث النحاة المتقدمين ، واتضحت عنايتهم البليغة بتحديد العلاقة بين المتكلم والسامع، وأثرها في تحقيق فائدة الكلام وتحقيق التواصل واستجابة المخاطب له, ومراعاة ظروف وملابسات الحدث الكلامي وما يصاحبه من أحوال ومقامات.

فكانوا يدركون أن الكلام يُقال لكي يوصل المتكلم إلى المخاطب معاني يقصدها ، قال الزجاجي : "إن المخاطَبْ والمُخاطِبْ ، والمُخبِر عنه ، والمُخبَر به ، أجسام وأعراض تنوب في العبارة عنها اسماؤها ، أو ما يعتوره معنى يدخله تحت هذا القسم من أمر أو نهي أو نداء ، أو نعت أو ما أشبه ذلك، مما تختص به الاسماء؛ لأن الأمر والنهي إنما يُعقدان على الاسم النائب عن المسمى فالخبر إذن هو غير المُخبَر، والمُخبَّر عنه ، وهما داخلان تحت قسم الاسم ، والخبر هو الفعل وما اشتق منه أو ضُمِّن معناه، وهو الحديث الذي ذكرناه، ولا بد من رباط بينهما وهو الحرف, ولن يوجد إلى معنى رابع سبيل فيكون الكلام قسم رابع ، وهذا معنى قول سيبويه : الكلم اسم وفعل وحرف"(7). فكان المخاطب والسامع محور العملية الكلامية ، فالمتكلم يصوغ كلامه وفقاً لأحوال السامع ومعارفه ، وهذه العلاقة المُنظَّمة بينهما هي التي تقود إلى الكشف عن المعاني وعن مقاصد المتكلمين ، قال السهيلي : "اعلم أن الكلام صفة قائمةٌ في نفس المتكلم يُعبر للمخاطب عنه بلفظٍ أو لحظٍ أو (بخطٍ) ، ولولا المخاطب ما أُحتيج إلى التعبير عما في نفس المتكلم"(8). لذا برز أثر المخاطب والمتكلم في العملية اللغوية والاتصال الإبلاغي ، وعُدّ المخاطب مشاركاً للمتكلم في إنتاج الكلام ، "فلّما كان المخاطب مشاركاً للمتكلم في حال معنى الكلام، إذ الكلام مبدأه من المتكلم ومنتهاه عند المخاطب ، ولولا المخاطب ما كان كلام المتكلم لفظاً مسموعاً، ولا احتاج إلى التعبير عنه ......"(9). وهذا يقرب مما يذهب إليه النظر اللغوي الحديث في تحديد نظرية التلقي رؤية جديدة ومفهوماً جديداً لفعل الفهم وتجعل المتلقي شريكاً في إنتاج المعنى وبنائه فهو : "عملية بناء المعنى وإنتاجه وليس الكشف عنه أو الانتهاء إليه ، وبذلك يُعدُّ المحصول اللساني مُؤثراً واحداً من مؤثرات الفهم لا بد من تغذيته بمرجعيات ذاتية قائمة على فعل الفهم من لدن المتلقي"(10). وقد أكد علماء العربية على التفاعل بين المنتج والمتلقي والنص ، وهو وجه من أوجه التماسك الدلالي النصِّي (11) ، فالمتكلم يراعي حال المخاطب من حيث العلم والجهل به ، ويكون أساساً في ترتيب الكلام وبناء أجزائه(12)، منه ماذكره سيبويه في (التعريف والتنكير) والمعرف بـ (أل) : "وإنما صار معرفةُ ؛ لأنك أردت بالألف واللام الشيء بعينه دون سائر أمتّه ؛ لأنك إذا قلت : مررت برجلٍ ، فإنك إنما زعمت أنك إنمّا مررت بواحد ممن يقع عليه هذا الاسمُ، لا تريد رجلاً بعينه يعرفه المخاطب، وإذا أدخلت الألف واللام فإنما تُذكّره رجلاً قد عرفه ، فتقول : الرجل الذي من أمره كذا وكذا ، ليتوهمَ الذي كان عهده ما تذكر من أمره"(13) .

كما تحدث المُبرِّد في (باب الابتداء) عن فائدة الخبر : "فالابتداء نحو قولك : زيدٌ ، فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع ؛ ليتوقع ما تُخبرُه به عنه، فإذا قلت (منطلق) أو ما أشبهه صحَّ معنى

الكلام ، وكانت الفائدة للسامع في الخَبر ؛ لأنه قد كان يعرف زيداً كما تعرفه ، ولولا ذلك لم تقل له زيدٌ ، ولكنت قائلاً له : رجل يقال له زيد، فلمّا كان يعرف زيداً ، ويجهل ما تُخبره به عنه أفدته الخبرَ ، فصحَّ الكلام ؛ لأن اللفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئاً، وإذا قرنتها بما يصلحُ حدث معنى واستغنى الكلام"(44) ويشير النص إشارات دقيقة إلى الفائدة من الكلام وهو إعلام السامع بالخبر ، فهو متوقع بما يُخبِرُه المخاطب عنه ، فالكلام لم يصغ إلا للسامع، بمعونة السياق المحيط وقرائن النص المقترنة بالاسم والفعل الموحية بالمعنى والاستغناء الحاصل في الكلام .

وفي ضوءهذا الفهم الدقيق لعملية الكلام وأطرافه ومكوّناته تنَّبه النحاة على "أن ظاهر العبارة القرآنية ليس هو كل شيء في تحديد معناها ، وأنّ معاني النصوص لا تتقرر من داخلها، ووفقاً لما تمليه لغتها المباشرة وحدها، وإنما تتحكم في تحديد معنى النص القرآني كثير من الملابسات والقرائن ، منها المأثور من التفسير ، وأسباب النزول ، والسياق اللفظي ، والقرينة العقلية ، ...."(15). لذا عمد النحويون الأوائل إلى اعتماد وسائل غير لغوية في تحديد المعنى القرآني وفهم الجملة ومنها : المخاطَب ، والسياق ، والمقام ، "فالجملة أصبحت خاضعة لمناسبات القول وللعلاقة بين المتكلم والمخاطب، ولا يتم التفاهم في أية لغة إلا إذا رُوعيت تلك المناسبات ، وأخذت العلاقة بين أصحابها بنظر الاعتبار, ولن يكون الكلام مفيداً ولا الخبر مُؤدّياً غرضه ما لم يكن حال المخاطب ملحوظاً ليقع الكلام في نفس المخاطب موقع الاكتفاء والقبول"(16).

والُمتأمل في الموروث النحوي يجد أن النحويين وضعوا اللبنات الأولى لهذا الجانب المعنوي في تحليل النص ، فكانوا على وعي متقدم بضرورة أن يتجاوز النص تحليل البنية الداخلية ليشمل بنية السياق والعلاقات القائمة بين البنيتين السطحية والعميقة بما يشكل تماسكاً دلالياً ملحوظاً . إن ما تنَّبه عليه النحاة يقارب ما شاع لدى دارسي النص المُحدّثَين وهو ما يُعرف بـ(المقامية)(17) ، أو (المستوى التداولي في النص) وهذا الاتجاه نحو التداولية أصبح واضحاً في نهاية العقد الثامن من القرن العشرين(58). فشاعت في مؤلفات النحاة القدامى مفاهيم مراعاة المتكلم والسامع ، و(السياق) ، و(مقتضى الحال) أو المقام . ولا غرابة في ذلك ؛ لأن الغاية الكبرى عندهم الكشف عن معاني النص القرآني الكريم، وفهم تراكيبه وأسرار إعجازه، فاهتموا بالسياق وكل ما يحيط بالنص ، من ظروف وملابسات ، فالسياق هو المحدد للمعنى (19) . كما أن "فاعلية النصوص لا تظهر إلا من خلال مجموعة من العوامل السياقية التاريخية والنفسية والاجتماعية بما يصطلح عليه قديماً بـ (المقام) وحديثاً بـ (سياق النص) "(60). والكلمة المفردة لا تكتسب حياتها إلا

من خلال التأليف ولا يتحدد معناها إلا بالسياق ذلك أن "الكلام إنما وضع للفائدة ، والفائدة لا تُجنَى من الكلمة الواحدة ، وإنما تُجنَى من الجُمل ومَدارِجِ القول"(21). وتظهر أهمية السياق عند عبد القاهر الجرجاني في ملاءمة الألفاظ لمعانيها التي تليها ؛ إذ إن "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي كلمٌ مفردةٌ ، وإن الألفاظ تثبتُ لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"(22) .

وظهرت عناية النحاة الأوائل بـ (موقع الكلمة) من السياق والاستعمال القرآني المخصوص لها . فاللفظة القرآنية لها خصوصيتها ولها واقعها الخاص الذي يجعلها تتلبس بالجو العام للآية أو السورة مما يجعلها مُنزَّهة عن التبديل والترادف (27) ، ولها موقعها المقصود في التركيب القرآني من دقة الاختيار ، وحُسن الانتقاء ، وبراعة النسج مما يُشكل نسيجاً قوياً متماسكاً ، "ويشهد التتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عدداً قلّ أو كثُر في الألفاظ"(28) .

وقد ثبتت عناية العلماء بقرينة السياق في القرآن الكريم فهي كبرى القرائن(29) ، ولها ثلاث رتب فهي "إما متقدمة على اللفظة التي تُفسِّرها ، أو متأخرة عنها ، أو مكتنفة لها من جانبيها السابق لها واللاحق وجميعها من داخل النص القرآني"(210)، وتقسم القرائن إلى : "لفظية، ومعنوية ، واللفظية تنقسم إلى متصلة، ومنفصلة ، أما المتصلة فنوعان : نوع يصرف اللفظ إلى غير الاحتمال الذي لولا القرينة لحُمل عليه، ويُسمى تخصيصاً وتأويلاً . ونوع يظهر به المراد من اللفظ ويسمى بياناً"(27). وتظهر أهمية السياق في النص القرآني في تحديد المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق ، قال الزركشي : "أما دلالة السياق فأنها تُرشِد إلى تبيِّين المُجمَل والقطع بعدم احتمال غير المُراد وتخصيص العام، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم"(28). وتعين قرينة السياق على تحديد دلالة الألفاظ القرآنية ؛ إذ يكسب السياق القرآني والاستعمال المخصوص الألفاظ دلالات جديدة غير معهودة : "فمن أهملَهُ غلط في نظيره ، وغالط في مناظراته ، وانظر إلى قوله تعالى:**[ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ]** [الدخان:49] كيف تجد سياقه يدلُّ على أنه الذليل الحقير"(29) .

والتفت النحاة إلى قرينة (سياق الحال)(30)، أو (الموقف) التي تدل على الظروف والأحوال الخارجية التي تحيط بالحدث اللغوي. كما أدركوا أن ثمة عناصر غير لغوية لها أثر في تحديد

المعنى بل هي جزء من أجزاء معنى الكلام ومنها : شخصية المتكلم وشخصية السامع وتكوينهما الثقافي ، وشخصيات مَن يشهد الكلام –إنْ وجدوا– وعلاقتهم بالموقف اللغوي ..... (311) .

واعتمد المفسرون في توجيه دلالات النصوص القرآنية عدة قرائن سياقية تسهم في تحديد المعنى ومنها : "معنى المفردة ، وقرينة الحال ، والقرينة العقلية، وتكون القرينة الفيصل في ترجيح دلالة دون أخرى من خلال النظر إلى القرائن التي فيه سواء أكانت محيطة بالنص مُكتنفة إياه، أم كانت متقدِّمة أو متأخِّرة عنه ، ولولا وجود القرائن السياقية لم نتوصل إلى المقصود من كثير من النصوص القرآنية"(312). والواضح أن المفسرين وظَّفوا هذه القرائن للكشف عن الوحدة الدلالية للنص القرآني الكريم، أما النحويون فلم يكونوا حديثي عهد بقرائن المقام وأحواله بل ظهر الاهتداء إليها مبكراً ، فقد وظفَّوها للكشف عن الوحدة النصِّية القرآنية وهذا وعي متقدم سبقوا فيه غيرهم ، فكان هدفهم تفسير النص القرآني والكشف عن معانيه بكل الوسائل ,والنحو لم يكن الغاية، بل كان وسيلة من وسائل الكشف عن النص . ولمّا كانت المعاني الأسس المعنوية التي بنى عليها النحاة نحوهم ، فلم يقتصر الأمر عندهم على اعتماد هذه القرائن في الاستدلال على المعاني ومقاصد المتكلمين فحسب بل سعوا إلى توظيف هذه القرائن في بناء الأحكام النحوية ، وإيضاح العلاقات بين أجزاء التركيب ، وتحديد المعاني الوظيفية لمفردات التركيب القرآني. ويتضح ذلك في مباحث الحذف والإضمار والتقديم والتأخير. وأقدم الإشارات الأولى لهذا الفهم المعنوي ما ذكره سيبويه عن قرينة سياق الحال (الحال المُشاهَدةَ) ، فقد ربط بين فهم النص وتقدير العوامل المحذوفة بما يحيط به من أحوال وملابسات تؤثر في بنية النص ومثاله "إذا رأيت رجلاً متوجهاً وِجْهَةَ الحاج ، قاصداً في هيئة الحاج ، فقلت مكةَ وربِّ الكعبةِ . حيث زكنتَ ، أنّه يريد مكة ، كأنك قلت : يريد مكة واللهِ"(33)، وقوله : "أو رأيت رجلاً يُسدِّد سهماً قِبَل القرطاسِ فقلت : القرطاس والله ، أي يصيبُ القرطاس ؛ وإذا سمعت وقعَ السَّهم في القرطاسَ قلت : القرطاسَ والله أي : أصاب القرطاسَ . ولو رأيت ناساً ينظرون الهلالَ وأنت منهم بعيد فكبّروا لقلت: الهلالَ وربِّ الكعبةِ أي : أبصروا الهلالَ"(34). فرؤية الحاجّ في هيئة الحج، ورؤية الرجل في حال تسديد القرطاس ، ورؤية الناس المتجمعين لرؤية الهلال أغنت عن تقدير الفعل المحذوف، واستدل بها على مراد المتكلم . كما اهتدى النحاة إلى أثر القرينة العقلية في دلالة الخطاب الإلهي وتوجيه الحكم النحوي ، وتوقف النحاة عند نمط من الأساليب القرآنية التي تُثير الإشكال في الفهم واللبس في المعنى، والتي تحملُ في ظاهرها معنى الدعاء الصادر عن الخالق Y على عباده ، إذ كيف يدعو الخالق على الإنسان

وهو في قبضته ورهن مشيئته؟(35)، ومن ذلك قوله تعالى: **[قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ]** [التوبة:30] وأوّلها ابن عباس 2 بأن القتل : اللعن، قال: " لعنهم الله. وكل شيء في القرآن (قتل) فهو لَعْنٌ"(36). والتفت سيبويه إلى الإشارات المعنوية الدقيقة الموجبة لصرف العبارة عن ظاهرها ، وفرّق بين دلالتي الدعاء الصادر عن الخلق والخالق ، واستند في ذلك إلى قرينة العقل التي تمنع أن يكون الفعل صادراً عن الخالق Y وهو القادر المقتدر ، قال: " وأما قوله تعالى: **[وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ]** [المرسلات:15] و **[وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ]** [المطففين:1] فالمقصود ليس الدعاء ههنا؛ لأن اللفظ به قبيح ، وإنما جاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون وكُلِّ ّم العباد بكلامهم ، وقوله وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ: أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم في الشر والهلكة ، ومثله قوله تعالى: **[فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى]** [طه:44] ومثله: **[قَاتَلَهُمُ اللَّهُ]** [التوبة:30] فإنما أجري هذا على كلام العباد وبه أنزل القرآن"(37) . وهنا ينبّه سيبويه على أن أساليب الخطاب القرآني في خطاب البشر وتكليم العباد إنما جاءت على ما تعارفوا عليه تقريباً للفهم والإفهام. وعّد ابن قتيبة هذه الأساليب من باب (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) وأفرد لها باباً في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ومنه "ومن ذلك الدعاء على جهة الذم الذي لا يراد به الوقوع ، كقول الله Y **[قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ]** [الذاريات: 10] و **[قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ]** [عبس: 17] ، **[قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ]** [التوبة: 30] ، ...ومن ذلك الجزاء عن الفعل بمثل لفظهُ والمعنيان مختلفان نحو قوله تعالى: **[إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ*اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ]** [البقرة:14-15] أي يجازيهم جزاء الاستهزاء،.. ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير... ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو تقرير ،.. أو تعجب... أو توبيخ... أو يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد... أو تأديب... أو إباحة......"(38). واهتدى النحاة إلى قرينة تعادل ما يعرف حالياً بـ (سياق الحال) أو (سياق المقام) وهي قرينة (أسباب النزول) ، فهي أعظم القرائن في فهم المعنى (39) ، وهي "طريق قوي في فهم معاني القرآن"(40) ، واستفاد النحاة من هذه القرينة في الكشف عن مقاصد الخطاب القرآني وإيضاح معاني النصوص القرآنية، فربطوا بين أسباب نزول الآيات وما تحيط بها من ظروف وملابسات بالحكم النحوي وعدّوها قرينة خارجية تحيط بالنص من الخارج استعين بها في فهم النص وتوجيهه . وقد فسّر النحاة المتقدمون كثيراً من مواطن الحذف في القرآن الكريم اعتماداً على هذه القرينة ، كما في حذف (الفاعل) في قوله تعالى: **[عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى]** [عبس:1-2] .

وهنا أغنت قرينة أسباب النزول عن الحاجة إلى ذكر الفاعل (413) ، وأوحت بمقاصد الخطاب ، فالغاية ليست الإخبار عن الفاعل القائم بالحدث، وإنما الاهتمام بالحدث الذي أوحى به المقام.

واهتم النحاة بـ (المقام) وأحواله التي تؤثر في توجيه الدلالة والحكم الإعرابي ، وهو ما أكد عليه ابن هشام في توجيه المُعربين إلى أن المعنى الواضح يقود إلى معرفة الإعراب الصحيح ، في قوله تعالى: **[وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي]** [مريم:5] ، فتعلق الجار والمجرور بالاسم (الموالي)، ولا يصح تعلقه بالفعل ؛ لأنه يبعده عن دلالة التركيب وسياق الموقف والحال المصاحِب له، والخوف الحاصل هنا ليس من ورائه ، وإنما الخوف من ولايتهم بعده وسوء خلافتهم لذا وجب تعلُّقه (بالموالي) لصحة المعنى والإعراب ، قال : "فإن المتبادر تَعلُّق (مِنْ) بـ(خِفتُ) ، وهو فاسد في المعنى، والصواب تعلُّقه بالموالي لما منه من معنى الولاية ، أي خفت ولايتهم من بعدي وسوء خلافتهم ، أو بمحذوف وهو حال من الموالي أو مضاف إليهم ، أي كائنين من ورائي ، أو فِعل الموالي من ورائي ، وأما من قرأ (خَفّتِ) بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء(42)؛ فمن متعلقة بالفعل المذكور"(43) .

ومن الظواهر النحوية التي بحثها النحو القرآني في ضوء هذه القرائن :

1- الحذف والتقدير :-

كشفت جهود النحويين القدامى عن رفض النحو القرآني الحذف والتقدير في النص القرآني الكريم ، فهو الكتاب المُقدَّس المُنزَّه عن الحذف والنقصان والزيادة والحشو. وكان هذا الرفض مبنياً على أسس معنوية قرآنية تنَّبه عليها القدامى في إطار تعمقهم في تحليل النص القرآني الكريم ودراسته ، لذا عمدوا إلى اعتماد عدة وسائل كاشفة عن العنصر المغيب تغييباً قصدياً ؛ إذ ما من حرف أو كلمة في الخطاب الإلهي إلا ووضع لغاية مخصوصةٍ وقصد إلهي سابق .وهي اعتماد القرائن السياقية في الاستدلال على مقاصد النص وفي تسويغ الحذف (44) . فقد بنوا أحكامهم على مراعاة حال المتكلم والمخاطب ومجموعة من القرائن الحالية والمقالية التي يعتمد عليها المتكلم في إيصاله الكلام وتحقيق إستجابة المتلقي .

وتوصل النحاة الأوائل إلى أنه لا يوجد (حذف) وإنما هناك (استغناء) لذا اعتمدوا دلالة الاستغناء عن ذكر العنصر المحذوف بناءً على قرينة علم المخاطب، وقرائن السياق والمقام ، فلم

يجيزوا الحذف إلا (فيما يستغنى عنه) , قال سيبويه في "باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره ، إذا علمت أن الرجل مستغنٍ عن لفظك بالفعل"(45) .

وقد وجد النحاة أن حذف المبتدأ والخبر جائزٌ استغناءً بعلم المخاطب ، واكتفاءً بدلالة قرينة (الحال المُشاهدَّة) أو الدليل المُتقدم ، قال المبرد "فأما حذف الخبر فمعروفٌ جيدٌ ، ومن ذلك قوله : **[وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً]** [الرعد:31] . لم يأت بخبر لعلم المخاطب ، ومثل هذا الكلام كثير ، ولا يجوز الحذف حتى يكون المحذوف معلوماً بما يدلُّ عليه من متُقدم خبر، أو مُشاهدة حال"(46) .

واعتمد سيبويه على القرينة الحالية الدالة على المحذوف في باب (ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره من الأمر والتحذير) ، فقد صرف الاستغناء برؤية الحال وما يجري عليه من الذكر عن ذكر (الفعل) ، لذا جاء حذف الفعل في هذه الأحوال كثيراً في كلامهم فصار المفعول الأول بدلاً من اللفظ بالفعل(47) .

وكان سيبويه بارعاً في رصد أحوال المخاطب، وربطه بين الأحوال الاجتماعية والنفسية لكل من المتكلم والمخاطب ، فبنى كثيراً من الأحكام النحوية بناءً يتناسب وتلك الحالات والأوضاع (48) ، فجاءت تلك الأحكام متساوقة مع طبيعة اللغة ، ومن ذلك تصوّره قدرة المخاطب على الموازنة بين الأشياء التي يسمعها ، وبين الاستدلال بكل ما يوحي به النص من قرائن وإشارات (49) ، وهذا دليل على قدرة المخاطب على الاستدلال بالقرائن في تفسير الحذف ، ومنه قوله: في باب (التنازع) واستنباطه أن الفعل الذي يلي الاسم هو العامل استناداً إلى معرفة المخاطب : "ومما يقوّي تركَ نحو هذا لعلم المخاطَبِ قوله Y **[وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ]** [الأحزاب:35] ، فلم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول استغناء عنه ...... فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد ؛ لأنه قد علم أن المخاطب سيستدلُّ به على أن الآخرين في هذه الصفة"(50)

والحذف في القرآن الكريم "لعلم المخاطب بها كثيرة جداً ، وهي إذا أظهرت تم بها الكلام ، وحذفها أوجز وأبلغ"(514) . لذا عُدَّ الحذف من الأساليب القرآنية البليغة فلم يُجوّزوه إلا بما يقتضيه السياق من علم المخاطب، أو وجود أدلة سياقية دالة على المحذوف . فالعرب لا يحذفون شيئاً إلا وأبقوا عليه دليل(515). وفصل ابن جني مواطن الحذف وشروطه ، قال : "قد حذفت العرب الجملة

، والمفرد ، والحرف ، والحركة وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه ، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته . فأما الجملة فنحو قولهم في القسم ، والله لا فعلت ، وتالله لقد فعلت ، واصله أقسم بالله ، فحذف الفعل والفاعل وبقيت الحال من الجار والجواب دليلاً على الجملة المحذوفة وكذلك الأفعال في الأمر والنهي والتحضيض"(516) . ومن ذلك ترك (الفاعل) لقرينة عرفية وسياقية، قوله تعالى: **[حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ]** [صّ:32] أي : (الشمس) قال الزجّاج: "يعني الشمس ، ولم يجرِ للشمس ذكر ، وهذا لا أحسبهم أعطوا الفكر حقه فيه ؛ لأن في الآية دليلاً يدل على الشمس وهو قوله: إذ عُرِضت عليه بالعشيّ [والعشيُّ] في معنى : بعد زوال الشمس ، حتى توارت الشمس بالحجاب وليس يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكره أو دليل ذكر بمنزلة الذكر"(54) .

ومنه أيضاً (ترك المعطوف) اكتفاءً بدلالة السياق نحو قوله تعالى: **[سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ]** [النحل:81] ، قال الفرّاء: "ولم يقل: البرد ، وهي تقي الحرَّ والبرد ، فتُرِك؛ لأن معناه معلوم"(55) . وقد يُترَك ذكر المفعول به اكتفاءً بدلالة القصد والغرض : فقد يتعلق الغرض بمجرد الإعلام بوقوع الفعل من غير تعيين من أوقع عليه ، أو إيقاع الفاعل للفعل ، أو إسناد الفعل إلى فاعله ، ولا يسمى حينها محذوفاً بل متروكاً لدلالة القصد عليه (56) .

وكان ابن هشام دقيقاً في دراسته هذه الظاهرة ، ووضع قيوداً في تقدير المحذوف منها : بيان حال المقدر "فينبغي تقليله ما أمكن لتقل مخالفته الأصل"(57) وفي كيفية التقدير ، ومواضعه، وشروطه(58) . وقرر أن الحذف هو من مقتضيات صناعة النحو ، وهو تقدير تعليمي لإفادة متعلمي التفسير والعربية (59) . كما تنَّبه النحاة على وجه من وجوه الإعجاز في الخطاب القرآني وهو التوجه نحو المتلقي ، فالمنهج الكلي الشمولي لا يتحقق إلا بتحقيق التواصل مع المتلقي ، والنص يبرز الفضاءات الذهنية والمعرفية المشتركة بين طرفي الكلام المتكلم والمخاطب (60) ؛ إذ يحاكي النص معتقدات المتلقي ويعمل على استثارتها ، فمن الممكن أن يصبح النص نصاً آخر عند المتلقي بما يتناسب مع معارفه ومعتقداته . وقد أوجد الخطاب القرآني نمطاً من النظم يمنح الحرية لمتلقيه في استكشاف دلالاته المتجددة ويُوقظ الوعي ويُنَبِّه الفكر إلى دلالاته الجمالية . وأبرز صور التوجه القرآني نحو المتلقي (ترك الأجوبة) في قوله تعالى: **[وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً]** [الأنعام:27] فقد أبقى النص

القرآني الجواب مفتوحاً وتركه للمتلقي وهو السامع والقارئ للقرآن ليُشكِّل الجواب بما توحيه دلالات النص (617).

لذا تطلب تغيير بنية الجملة والتعبير بالفعل الماضي لإيقاظ وعي السامع وتنبيهه ومنه قوله تعالى: **[وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ]** [الزمر:73] . واستدل الزمخشري على حذف جواب الجزاء بقرينة علم المخاطب وعدم قدرته على تخيل ما سيحدث قال: "وإنما حذف ؛ لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدّل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف، وحقَّ موقعه ما بعده خالدين"(62) ، كما أن ذكر (الواو) فيه دلالة على الجواب ، ووصف حال أهل الجنة، فالأبواب كانت متفتحة لهم ومُتشوِّقة إلى لقائهم لذا جيء بالواو(63) .

من ذلك يتبين أن (ترك الأجوبة) أو (الحذف) في القرآن الكريم إنما يحَسُن في مواقع التهويل والتفخيم؛ لقوة دلالة المعنى والسياق عليه (64). فهو أشبه بالرياضة الفكرية التي تجعل النفس تدور في تصوّر الأشياء المُستغنَى عنها ، فلا جدوى من الإصرار على تقدير المحذوف، لأنه يُذهِب بمقاصد الخطاب (65) ، ما دام هناك دليل على المحذوف أو بنية معهودة وقرينة في السياق. لذا يعد (الحذف) مظهراً من مظاهر السياق (66) ، وضرباً من ضروب الاقتصاد اللغوي(67) .

والنظم القرآني راعى قضية الحذف والذكر فكما أن للحذف مواضعه ، فإن للذكر مواضعه (68) ؛ إذ "لا تذكر كلمة إلا إذا اقتضاها السياق ، ولا تحذف كلمة إلا وحذفها أبلغ وأنسب وأكثر ترابطاً في الأسلوب .... بحيث تتداعى الألفاظ تداعياً طبيعياً حسبما تقتضيه الأفكار ، وتنحدر بسهولة ويُسر حتى تتماسك في مواضعها التي هُيئِّت لها"(69) .

2- التقديم والتأخير :

بحث النحاة أسلوب التقديم والتأخير بوصفه من الأساليب التي تؤكد قدرة المنشيء على تغيير مواقع الجمل عن مواضعها ، وتغيير مراتب الجمل والألفاظ نحو تقديم الفعل على الفاعل والفاعل على مفعوله .... وللتقديم في موضعه وفي رتبته أغراض ومعانٍ يقتضيها المقام والحال ، وهي أغراض بلاغية يقصدها المتكلم(70) ، لا يمكن التعبير عنها إلا بالتقديم كالعناية والاهتمام بالمُقدَّم وتخصيصه دون غيره قال سيبويه: "كأنهم إنما يُقدِّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى,

وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعينيانهم"(718) ، ومنه قوله تعالى: **[وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ]** [البقرة:124] ، قال الأخفش : "وإبراهيم هو المبتلى ، فلذلك انتصب"(719). وتقديم المفعول به هنا جاء للإهتمام به وما أوجبه هو الضمير العائد على المفعول والمتصل بالفاعل . كما اهتم النحاة بمراعاة كل ما يتعلق بصحة بناء الجملة، وسلامة التركيب ، فكان انشغالهم بالتأسيس لهذه المعاني واستخلاصها من الأبواب النحوية يصرفهم عن التوسع في أغراض التقديم والمعاني الثانوية له على غرار ما نجده عند البلاغيين والمتأخرين من النحاة(73). وفي التعبير القرآني يكتسب التقديم والتأخير دلالة خاصة وأغراضاً يتحكم بها المعنى والمقام السياق وكل ما يحيط بالنص من ملابسات وأحوال (74) .

وللنص القرآني نظامه المُعجِز والخاص ، فبناء الآية القرآنية بناء مترابط ومتكامل الأجزاء ، فالتقديم والتأخير ، والذكر والحذف والإطالة والإيجاز والأطناب لا يكون إلا بما يستدعيه المقام والموقف ، والقصد الإلهي(75). واتضح ذلك عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني فقد جاء بحثه لهذه الظاهرة بحثاً أسلوبياً استند فيه إلى تحليل النص القرآني من وجهة نظر أسلوبية خالصة حينما وَجَّه التحليل الداخلي للعبارة بديلاً عن التقسيم الخارجي (الشكلي) ، وبحث علاقات النص التركيبية في السياق ، وتعاضدها في إنتاج الدلالة المتكاملة ، فأكمل ما بدأ به النحاة ، ولم يقف عند الجانب الشكلي والظاهري في تعليل التقديم بالعناية والاهتمام والاتساع(76) ، بل اعتمد النظر في الفروق الدلالية والمعنوية لهذه الأساليب، وبحث الفائدة في التصرف في الألفاظ والمعاني والأساليب بحسب سياقاتها في النص القرآني الكريم . ومن ذلك : تفريقه بين دلالتي تقديم الاسم، وتقديم الفعل، ومجيء همزة الاستفهام للتقرير بالفعل ، والتقرير بالفاعل كما في قوله تعالى: **[قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ]** [الأنبياء :62] . فالاستفهام بالهمزة مع الفعل يكون لمن أنكر ، وتوبيخ لفاعله عليه (77) ، لذا بُنيت أنماط التراكيب القرآنية وفقاً لهذه الدلالات. واستنبط الجرجاني من التقرير بالهمزة دلالة (إنكار حدوث الفعل من أصله)، ويربطه بنصوص أخرى من التنزيل ، قال: "وأعلم أن الهمزة فيما ذكرناه تقرير بفعل قد كان وإنكار له لِم كان، وتوبيخ لفاعله عليه ، ولها مذهب آخر وهو أن يكون لإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله ، ومنه قوله تعالى: **[أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا]** [الإسراء:40] وقوله

تعالى: [◌َاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ*مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ] [الصافات:153-154] فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم ......"(78) .

ومن دلالات تقديم الاسم في القرآن الكريم تنبيه السامع ببعض الأساليب التي تُنزَّل منزلة التمثيل والتشبيه ، ومنه قوله تعالى: **[أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِي الْعُمْيَ]** [الزخرف:40] "ليس إسماعُ الصَمِّ مما يَدَّعيه أحدُ، فيكون ذلك للإنكار، وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه، وأن يُنزَّل الذي يُظَنُّ بهم أنهم يَسمعُون، أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يُسْمِعُ الصمَّ ويهديَ العميَ..."(79) والجرجاني يُقلِّب الاستفهام على وجوهه المختلفة من استفهام بالهمزة، أو مع المنفي أو المثبت ، وفي كل منها يُثبتْ معنًى زائداً ودلالة فنية لا تتوافر في الآخر، فالهمزة إذا وليها الفعل دلت على معنى ، وإذا وليها الاسم دلت على معنى آخر(80).

ومن تحليلاته المعنوية العميقة في تقديم بعض الألفاظ نحو لفظة (الشركاء) إذْ أفاد التقديم فائدة معنوية وتنبيه السامع على عِظم شأن المعنى ، فالتقديم زاد النص زيادة في المعنى دون زيادة المبنى ، وأفاد انتقال المعنى إلى ضده (820) ، فهو ضرب من الإيجاز في النظم القرآني في التقديم والتأخير ، كما في قوله تعالى: **[وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ]** [الأنعام:100] . ويرى عبد القاهر الجرجاني أن المعنى اللغوي الأولى تمهيدٌ ودليل إلى معنى آخر لا تدركه إلا الأفهام الجيدة والهمم اليقظة وهو الفائدة الشريفة من هذا التقديم (821) ، وهو "أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجنِّ ولا غير الجنِّ، وإذا أُخِّر فقيل : جَعلوا الجنَّ شركاء لله لم يُفِدْ ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى"(822).

3- التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع :-

عُنِي النحو القرآني بظواهر بيِّنة في أسلوب القرآن الكريم ونظام العربية وهي الظواهر التي يقوم عليها صحة التركيب وسلامة المعنى وضرورة تطابق عناصر الجملة في الجنس والعدد والنوع ، ومنها : التذكير والتأنيث ، والإفراد والتثنية والجمع ، والعدول في وجوه المخاطبات (84). فقد استوقف الاستعمال القرآني المقصود النحاة ونظروا في هذه الظاهرة التي رأوا فيها شذوذاً عما أصّلوه وأسسوا له من مطابقة بين أركان الإسناد ، أو بين النعت ومنعوته . فجاءت دراستهم لها في ضوء تمسكهم بـ (الأصل والفرع)(85) ، وعدّوها عدولاً عن القياس العقلي، وعن أصل قياس مفترض(86) ، لذا لجأو إلى التأويل والقول بالمجاز والعامل، ليستقيم مع أصولهم وقواعدهم ، قال ابن جني : "التذكير هو الأصل ، والتأنيث فرع عليه ، لذا احتاج إلى علامة تُميِّزه"(87) ، وعدّ ابن

جني هذه الأساليب من باب (الحمل على المعنى) وهي ظاهرة في اللغة واسعة وشائعة (88)وأ كثر من أن تحصى(89).

إلا أن المُدقِّق في مصادر النحو القرآني يتلمس بوضوح عمق التفكير النحوي ودقته في دراسة هذه الظواهر المُخالفة (للأصل) كما ذهبوا إليها ، إذ بحث النحاة هذه الأساليب بحثاً معنوياً في ضوء المعنى والقصد الإلهي ومراعاة أحوال النص وملابساته من قرائن ودلائل موحية بالمعنى المراد . ولذا أصبح الإعراب قائماً على أدلة معنوية وقرائن دلالية. فالتذكير والتأنيث يُقررِّه المعنى والقصد والسياق ، "فمرة يكون التأنيث أجود، ومرة يكون التذكير أجود بحسب القصد والسياق"(90) وهو ما تنَّبه عليه علماء النحو الأوائل ، قال سيبويه في قراءة بعض القراء بـ (التاء)(91) في قوله تعالى: **[ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا]** [الأنعام:23] و**[يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ]** [يوسف:10] "وربما قالوا في بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنَّث البعضَ؛ لأنه أضافه إلى مؤنّثٍ هو منه، ولو لم يكن منه لم يُؤَنِّثه ، لأنه لو قال : ذهبتْ عبدُ أمِّك لم يَحْسُنْ"(92) . وعلّل الخليل وصف المذكر بالمؤنث بدواعي المعنى والسياق "فقد يكون الشيءُ المذكَّر يوصف بالمؤنث ، ويكون الشيء المذكر له الاسم المؤنث نحو (نَفْس) ، وأنت تعني الرجل به . ويكون الشيء المؤنث يوصف بالمذكر ، وقد يكون الشيء المؤنث له الاسم المذكَّرُ فمن ذلك : هذا رجلٌ رَبعةٌ وغلام يَفعةٌ . فهذه الصفات"(93).

ويَحسُن تذكير الاسم المؤنث فيما يعقل ، فيأتي التذكير والتأنيث للفصل بين معنى الاسم والفعل ، وهو ما ذهب إليه الأخفش : "وأما قوله تعالى: **[وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ]** [البقرة:48] فإنما ذَكَّر الاسم المؤنث ؛ لأن كل مؤنث فَرقّت بينه وبين فعله حَسُنَ أن تُذكِّر فعله ، إلا أن ذلك يَقبحُ في الإنس وما أشبههم مما يعقِلُ؛ لأن الذي يعقل أشد استحقاقاً للفعل ؛ وذلك أن هذا إنما يُؤنَّث ويُذكِّر ليفصل بين معنيين . والمواتُ : كالأرض ، والجدار ، ليس بينهما معنًى كنحو ما بين الرجل والمرأة فكلُّ ما لا يعقل يُشَّبه بالموات"(94). كما يتحكم القصد الإلهي في صياغة هذه الأساليب ووضع الألفاظ في غير مواضعه(95)، ونظم الأساليب التي تخرج عن المألوف ووضعها في غير ما ينبغي لها من تأنيث أو تذكير ، أو إفراد أو تثنية أو جمع ، أو تعريف أو تنكير . ويفصح الاستعمال القرآني المقصود عن دلالات جديدة مستنبطة من سياق النص القرآني وأحوال المقام ، فهذه الأنماط من الأساليب تحاكي عقول مخاطبيها في توليد معانٍ جديدة واستنباط طرائق جديدة في التعبير . ومن أمثلة ذلك العدول عن خطاب المثنى بالمفرد لقصد معرفة المخاطب واكتفاءً بدلالة الحال الموحية بالمعنى ، قال الفرّاء : في قوله تعالى: **[فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ**

فَتَشْقَى] [طـه:117] ، "ولم يَقلْ فتشقيا ، لأن آدم هو المخاطب ، وفي فعله اكتفاء من فعل المرأة ، ومثله قوله تعالى: **[عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ]** [قّ:17] اكتفى بالقعيد عن صاحبه؛ لأن المعنى معروف"(96).

وفسّر الزمخشري اختصاص إسناد فعل الشقاء بآدم وحده دون حواء ؛ لأنه هو القيم على أهله، وضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه أو يكون المراد التعب في طلب العون(97) .

وقد تكشف قرينة أسباب النزول أسرار التخالف والعدول كما في وضع الجمع موضع المثنى في قوله تعالى: **[هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ]** [الحج:19]، قال الفراء " (هذا خصمان) فريقين أهل دينين . فأحد الخصمين المسلمون والآخر اليهود والنصارى .... فقال اليهود والنصارى للمسلمين : ديننا خيرٌ من دينكم ؛ لأنّا سبقناكم ، فقال المسلمون: بل ديننا خير من دينكم لأنا آمنا بنبينا والقرآن وآمنا بأنبيائكم وكتبكم وكفرتم بنبِّينا وكتابنا. فَعَلاهم المسلمون بالحجة ، وأنزل الله هذه الآية. ولم يقل (اختصما) لأنهما جمعان ليسا برجلين، ولو قيل: اختصما كان صواباً . ومثله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) يذهب إلى الجمع. ولو قيل : اقتتلتا لجاز، يذهب إلى الطائفتين"(98) .

وقيل أن هذه الآية نزلت في "حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة(99) ، وقد يكون الخصم : "واحداً وجماعة"(100) .

ومنه أيضاً اختصاص الأسلوب القرآني بالتوحيد مرة ، وبالجمع مرة كما في قوله تعالى: **[وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ]**[الأنعام:25] وقوله: **[وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ]** [يونس:42] ووازن الخطيب الاسكافي بين الآيتين المتشابهتين بقرينة أسباب النزول ، فالأولى قيل أنها في "قوم من الكفار كانوا يستمعون إلى النبي ρ وإلى قرآنه بالليل ، فإذا عرفوا بها مكانه رجموه وآذوه ومنعوه من الصلاة خوفاً من أن يسمعه منهم من تدعوه دواعي الحق فيسلم ، وهذا في قوم قليلي العدد يرصدونه ρ بالليل، وكان الله يمنعهم عنه بنومٍ يلقيه عليهم وحجاب يحجبه به عنهم لقوله تعالى: **[وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً]** [الإسراء:45] ، فصار ذلك كالكتاب على قلوبهم، وكالصم في آذانهم . وفي الآية الثانية فهو في كل الكفار الذين يسمعون مسموعاً هو حجة عليهم، وهو القرآن ولا ينتفعون بسماعه فكأنه صمٌ عنه..."(101). و(مِنْ) تصلح للواحد فما فوقه، لذا

يجوز عودة الضمير إلى لفظه وإلى معناه ، ومن هنا صُلح حملها في موضع القلة على اللفظ ، وفي موضع الكثرة على المعنى(102) .

نخلص إلى القول بأن هذه الظواهرعبّرت عن اتساع اللغة في استعمال الصيغ المُعبِّرة عن معاني الإفراد والتثنية والجمع ..... (103). وكان القدامى يدركون أهمية وضع الألفاظ في غير مواضعها لما لها من أهمية معنوية . قال ابن جني في باب (الواحد والجماعة) "نحو قولهم : هو أحسن الفتيان وأجمله .... فأفرد الضمير مع قدرته على جمعه وهذا يدلك على قوة اعتقادهم أحوال المواضع وكيفية ما يقع فيها ، ألا ترى أن الموضع موضع جمع ، وقد تقدم في الأول لفظ الجمع فترك اللفظ وموجب الموضع إلى الإفراد ؛ لأنه مما يُؤلف في هذا المكان"(104)

الخاتمة

كشف البحث عن عمق البحث النحوي عند نحاتنا القدامى,واتضح أن النحو القرآني الذي أسس له الأوائل كان فكرًامعنويًا قائمًاعلى أسس معنوية تعبر عن مقاصد المتكلمين وأغراضهم,انطلقوا فيه من نص القرآن الكريم.فقد وضعوا اللبنات الأولى للتفكير النحوي القرآني في الاستدلال بقرائن المخاطب والسياق والمقام في تحليل النص القرآني,وبناء الأحكام النحوية. فلم تكن دراستهم لظواهر النص القرآني شكلية ,بل كانت دراسة معنوية عميقة,وتوصلوا إلى أنه لايوجد حذف في النص القرآني وإنما عدّوه(ترك ذكر) و(استغناء)بقرينة علم المخاطب وقرائن السياق والمقام .أما تقدير المحذوف فهو من مقتضيات الصناعة النحوية. فكان (ترك الاجوبة) في الخطاب القرآني صورة من صورالتوجه القرآني نحو المتلقي لاستثارة معارفه وايقاظ وعيه وفكره. فالحذف والذكر,والتقديم والتأخير, والعدول في وجوه المخاطبات, ووضع الألفاظ في غير مواضعها يكون لأغراض ومعان يقتضيها المقام والسياق. وكان النحاة بذلك يؤسسون لمفاهيم قرائن المعنى والسياق بما يدل دلالة واضحة على شيوع تلك المفاهيم في بيئة الدرس النحوي, وغناه بهذه الدلالات. إلا أن طغيان النزعة التعليمية والبحث العقلي والمنطقي على بحوث النحاة ولاسيما. المتأخرين منهم . هو ماشاب اجتهاداتهم, وعكّر صفوابتكاراتهم, وأرائهم العميقة التي أخذت حيزاً واسعًا من تفكيرهم واهتمامهم.

الهوامش

---

(1) ينظر: البيان والتبيين: 138/1.

(2) المصدر نفسه :136/1 .

(3) ينظر: علم لغةالنص : د.سعيد بحيري:128 , ولسانيات النص,محمد خطابي : 297.

(4) ينظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: 306,ونظرية النحو القرآني :49.

(5) ينظر:نحو القرآن :6 ,وقضايا نحوية,د.مهدي المخزومي :56,والنحويون والقرآن الكريم:8, ودراسات نقدية في اللغة والنحو,د.كاصد الزيدي :86 .

(6) ينظر: إحياء النحو: 16.

(7)الإيضاح في علل النحو : 42 .

(8) نتائج الفكر : 170 .

(9) بدائع الفوائد، ابن قيّم الجوزية : 176/1.

(10) نظرية التلقي أصول وتطبيقات ، د. بشرى موسى صالح : 29 .

(11) ينظر: علم اللغة النصِّي بين النظرية والتطبيق ، د. صبحي إبراهيم الفقي : 1/ 132 .

(12) ينظر: مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه ، د. كريم حسين : 23 .

(13) الكتاب : 2/ 5 .

(14) المقتضب : 4/ 126 ، وينظر : الكتاب : 1/ 23 و : 1/ 87 .

(15) التأويل اللغوي في القرآن الكريم ، د. حسين حامد الصالح : 164 .

(16) في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي: 225 .

(17) ينظر: مدخل إلى علم النص ، محمد الأخضر الصبيحي : 97 .

(18) ينظر: أسس لسانيات النص : 114 .

(19) ينظر: اللغة والمعنى والسياق ، جون لاينز: 222 .

(20) نظرية التلقي : 16 .

(21) الخصائص : 2/ 333 .

(22) دلائل الإعجاز : 92 .

(23) ينظر: السياق أثره في الكشف عن المعنى : 143- 144 .

(24) الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، د. عائشة عبد الرحمن: 1/ 7 .

(25) ينظر: البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان : 164/1.

(26) القرائن الدلالية للمعنى في التعبير القرآني ، د. عدوية عبد الجبار : 20 .

(27) البرهان في علوم القرآن : 2/ 135

(28) المصدر نفسه : 2/ 127 .

(29) المصدر نفسه : 2/ 127 .

(30) ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، د.نهاد الموسى:85.

(31) ينظر: علم اللغة ، د. محمود السعران: 252 .

(32) القرائن الدلالية للمعنى في التعبير القرآني : 29 .

(33) الكتاب : 257/1 .

(34) المصدر نفسه : 1/ 257 .

(35) ينظر: التأويل اللغوي في القرآن الكريم : 161.

(36) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري (ت 310هـ)، تحقيق: د.عبد الله عبد المحسن التركي: 415/11.

(37) الكتاب : 1/ 331- 332 .

(38) تأويل مشكل القرآن : 281- 297 .

(39) ينظر: البرهان في علوم القرآن : 2/ 128 .

(40) الاتقان : 1/ 28 .

(41) ينظر: معاني القرآن وإعرابه : 5/ 220 .

(42) قرأ الجمهور (خِفتُ) من الخوف ، وقرأ عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وابن عباس وسعيد بن العاصي وابن يعمر وابن جبير وعلي بن الحسين والوليد بن مسلم لأبي عامر (خَفّتِ) بفتح الخاء ، وتشديد الفاء وكسر تاء التأنيث . ينظر : البحر المحيط : 7/ 241 .

(43) مغني اللبيب : 687 .

(44) ينظر: السياق أثره في الكشف عن المعنى : 107 .

(45) الكتاب : 1/ 253 .

(46) المقتضب : 2/ 81 .

(47) ينظر:الكتاب: 275/1، والخصائص 1/ 285 : (دلالة الحال تنوب عن المحذوف حتى تصير في حكم الملفوظ) .

(48)ينظر: مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه: 20- 28.

(49) ينظر:المصدر نفسه: 24 .

(50) الكتاب : 1/ 74- 75 .

(51) كتاب الرد على النحاة : 79 ، وينظر: معاني القرآن ، الأخفش : 1/ 142 .

(52) ينظر: الأصول في النحو : 2/ 254 .

(53) الخصائص : 2/ 360 .

(54) معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج : 4/ 248 ، وينظر: مجاز القرآن : 2/ 182، والاتقان: 1/ 186 .

(55) معاني القرآن ، الفراء : 2/ 112 .

(56) ينظر: دلائل الإعجاز : 168- 169 ، ومغني اللبيب : 797- 798 .

(57) مغني اللبيب : 802

(58) ينظر: المصدر نفسه : 802- 811 .

(59) ينظر: المصدر نفسه : 853 .

(60) ينظر: استقبال النص عند العرب ، د. محمد رضا مبارك : 15 .

(61) ينظر: المصدر نفسه : 15 .

(62) الكشاف : 948 .

(63) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل : 410 .

(64) ينظر: منهاج البلغاء ، ابن حازم القرطاجني: 391 .

(65) ينظر: الرد على النحاة : 91 ، ونحو القرآن : 18.

(66) ينظر: البيان في روائع القرآن : 1/ 23 ، والإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق : د.عائشة عبد الرحمن : 192 .

(67) ينظر: الاقتصاد اللغوي في اللغة العربية ، د. ندى سهام: 151- 179 .

(68) ينظر: دلائل الإعجاز : 192.

(69) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، د. فتحي أحمد عامر: 188 .

(70) ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين : 216- 236 .

(71) الكتاب : 34/1 .

(72) معاني القرآن ، الأخفش : 1/ 154 ، وينظر : الخصائص : 1/ 294- 295 .

(73) ينظر: نظرية المعنى في الدراسات النحوية ، د. كريم حسين : 355 .

(74) ينظر: التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي : 51، 53 .

(75) ينظر: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز ، د. فتحي عامر : 141 .

(76) ينظر: دلائل الإعجاز : 135.

(77) ينظر: المصدر نفسه : 140 .

(78) المصدر نفسه : 141.

(79) المصدر نفسه : 145.

(80) ينظر: دلائل الإعجاز : 140-160.

(81)ينظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، الزملكاني (ت 561هـ) ، تحقيق: د. خديجة الحديثي و د. أحمد مطلوب : 229 .

(82) ينظر: التراكيب النحوية من وجهة النظر البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني ، د. عبد الفتاح لاشين : 93 .

(83) دلائل الإعجاز : 276 .

(84) ينظر: مجاز القرآن : 1/ 9 ، وتأويل مشكل القرآن : 281- 297 .

(85) ينظر: شرح ألفية ابن معطي : 1/ 483، وحاشية الصبان : 1/ 141- 142 .

(86) ينظر: شرح الكافية ، الرضي : 3/ 427 ، وهمع الهوامع : 1/ 194 .

(87) الخصائص : 2/ 417 ، وينظر: الكتاب : 2/ 22 .

(88) ينظر: الخصائص : 2/ 425 .

(89) ينظر: الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، مسألة (11) : 77/2

(90) معاني النحو ، د. فاضل السامرائي : 53/2 .

(91) ينظر: النشر في القراءات العشر : 2/ 257 (قرأ حمزة والكسائي ويعقوب والعليمي عن أبي بكر بالياء على التذكير ، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث) .

(92) الكتاب : 1/ 51 .

(93) المصدر نفسه : 2/ 212.

(94) معاني القرآن ، الأخفش : 1/ 95 .

(95) ينظر: نظرات في الجملة العربية ، د. كريم حسين : 148- 183 .

(96) معاني القرآن ، الفرّاء : 2/ 193 .

(97) ينظر: الكشاف : 668 .

(98) معاني القرآن ، الفراء : 2/ 219- 220 ، وينظر : معاني القرآن وإعرابه :340/3.

(99) اعراب القرآن ، النحاس : 566 ، وينظر : معاني القرآن ، النحاس : 2/ 745 .

(100) معاني القرآن ، الأخفش : 2/ 453 .

(101) درة التنزيل وغرة التأويل : 117 .

(102) ينظر: المصدر نفسه : 117.

(103) ينظر: نظرية المعنى في الدراسات النحوية: 199 .

(104) الخصائص :421/2.

المصادر :

1. القرآن الكريم .
2. الإتقان في علوم القرآن : السيوطي ،عبد الرحمن جلال الدين (ت911هـ) وبالهامش إعجاز القرآن للباقلاني ، المكتبة الثقافية – لبنان 1973م .
3. إحياء النحو : إبراهيم مصطفى ،لجنة التأليف والترجمة ،القاهرة 1959م .
4. استقبال النص عند العرب : محمد رضا مبارك ، المؤسسة العربية ، بيروت ،ط1 ، 1999م.
5. أسس لسانيات النص : مارغوت هاينمان وفولفنغ هاينمان ،ترجمة د. موفق محمد المصلح ،دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ،2006م .
6. الأصول في النحو:ابن السراج ,محمد بن السري (ت316هـ) ,تحقيق عبد الحسين الفتلي ,مؤسسة الرسالة ,لبنان ,ط 2 ,1420هـ-1999م .
7. الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق : بنت الشاطئ ,عائشة عبد الرحمن, المعارف , مصر, ط 3 (دت) .

8. إعراب القرآن : النحاس,محمد بن اسماعيل (ت338هـ) ,تحقيق د.زهير غازي ,عالم الكتب ,بيروت,ط2, 1429هـ –2008م .
9. الاقتصاد اللغوي في اللغة العربية : د. ندى سهام , إشراف د.زهير غازي , جامعة بغداد ,كلية التربية للبنات ,اطروحة دكتوراه ,2009م .
10. الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين : أبو البركات الأنباري (ت577هـ) ,تحقيق محمد محي الدبن عبد الحميد,دار الإحياء.
11. الإيضاح في علل النحو :الزجاجي ,ابو القاسم (ت377هـ) ,تحقيق مازن المبارك ,المدني ,مصر ,1378هـ –1959م .
12. البحر المحيط في التفسير :ابو حيان الأندلسي ,محمد بن يوسف (ت 745هـ) ,عناية الشيخ زهير جعيد ,الفكر ,لبنان ,1412هـ –1992م .
13. بدائع الفوائد :ابن القيم الجوزية (ت751هـ),الطباعة المنيرية ,مصر (دت).
14. البرهان في علوم القرآن : الزركشي,محمد بن عبد الله (ت794هـ), تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ,المكتبة العصرية ,بيروت ,1427هـ – 2006م.
15. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : الزملكاني ,عبد الواحد عبد الكريم (ت651هـ), تحقيق د. خديجة الحديثي ود. أحمد مطلوب ,العاني ,بغداد ط1, 1394هـ –1974م.
16. البيان في روائع القرآن :د. تمام حسان ,عالم الكتب , مصر, 2002م .
17. البيان والتبيين : الجاحظ ,ابو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ) ,تحقيق عبد السلام محمد هارون ,المدني ,مصر ,ط1 ,1418هـ – 1998م.
18. التأويل اللغوي في القرآن الكريم : الصالح , د.حسين حامد ,ابن حزم ,بيروت ,ط1 ,1426هـ –2005م .
19. تأويل مُشكل القرآن : ابن قتيبة , عبدالله بن مسلم (ت 276هـ),تحقيق السيد احمد صقر,دار التراث القاهرة,ط2 ,1427هـ –2006م.
20. التراكيب النحوية من وجهة النظر البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني : د.عبد الفتاح لاشين ,المريخ ,الرياض ,ط1 ,1980م.
21. التعبير القرآني : السامرائي ,د.فاضل صالح , الزهراء ,النجف ,ط1 , 1387هـ – 1999م.
22. جامع البيان عن تأويل آي القرآن:الطبري ,محمد بن جرير(310هـ),تحقيق د.عبد المحسن التركي ,دارهجر للطباعة (د ت).

23. حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : الصبان ,محمد بن علي(ت1206هـ) ,تحقيق محمود بن الجميل ,مكتبة الصفوة ,القاهرة ,ط 1 ,1423هـ – 2002م.
24. الخصائص : ابن جني ,ابو الفتح عثمان (ت392هـ) ,تحقيق محمد علي النجار ,الهيئة المصرية ,القاهرة ,ط4 ,1999م.
25. دراسات نقدية في اللغة والنحو : د. كاصد الزيدي ,دار أسامة ,عمان ,ط1 ,2003م .
26. درّة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الأسكافي (ت 412هـ) , رواية ابي فرج الأردستاني , دار الأفاق ,بيروت ,ط 3 ,1979م.
27. دلائل الإعجاز:الجرجاني , عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت471هـ),مكتبة سعد ,دمشق ,ط2 ,1407هـ –1987م .
28. السياق أثره في الكشف عن المعنى,دراسة تطبيقية في كتب معاني القرآن : خلود جبار عيدان , إشراف .د زهير غازي ,جامعة بغداد, كلية التربية للبنات,اطروحة دكتوراه ,2008م.
29. شرح ألفية ابن معطي :تحقيق د. علي موسى الشوملي ,مكتبة الخريجي ,الرياض,ط1, 1405هـ –1985م.
30. علم اللغة : د.محمودالسعران ,دار الفكر العربي,القاهرة,ط2 ,1997م.
31. علم لغة النصّ – المفاهيم والاتجاهات –: د. سعيد بحيري ,مؤسسة المختار ,القاهرة ,ط1 ,1424هـ –2004م.
32. علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق : الفقي ,د .صبحي ابراهيم ,دار قباء ,القاهرة ,ط1 ,1431هـ – 2000م.
33. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم : د.فتحي احمد عامر ,الاهرام ,القاهرة ,ط1 ,1395هـ –1975م .
34. في النحو العربي نقد وتوجيه : د. مهدي المخزومي ,المكتبة العصرية ,بيروت (د ت).
35. القرائن الدلالية للمعنى في التعبير القرآني: عدوية عبد الجبار كريم الشرع, إشراف.د كاصد الزيدي ,جامعة بغداد, كلية التربية للبنات ,اطروحة دكتوراه 2006م.
36. القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : د. عبد العال مكرم ,المعارف ,مصر (دت).

37. قضايا نحوية : د. مهدي المخزومي ,المجمع الثقافي ,ابو ظبي ,ط1 ,1434هـ – 2002 م.
38. الكتاب : سيبويه ,ابوعثمان عمرو بن بحر (ت 180هـ) ,تحقيق عبد السلام محمد هارون , الخانجي ,القاهرة ,ط3 ,1408هـ – 1988م.
39. كتاب الرد على النحاة : ابن مضاء ,أحمد بن عبد الرحمن (ت 592هـ) ,تحقيق د. شوقي ضيف ,مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ,القاهرة , ط1 ,1366هـ – 1947م.
40. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري (538هـ),عناية خليل مأمون شيحا ,المعرفة ,بيروت ,ط3 ,1430هـ – 2009م.
41. لسانيات النص : محمد خطابي ,المركز الثقافي العربي ,المغرب ,ط 2, 2006م.
42. اللغة والمعنى والسياق : جون لاينز ,ترجمة د. عباس صادق الوهاب ,دار الشؤون الثقافية ,بغداد ,1987م .
43. مجاز القرآن: ابو عبيدة, معمر بن المثنى (ت 210هـ) ,تحقيق محمد فؤاد سزكين ,الخانجي ,القاهرة ,مصر (دت).
44. مدخل الى علم لغة النص : محمد الأخضر الصبيحي ,الدار العربية للعلوم ,ناشرون ,الجزائر .ط1 ,1429هـ – 2008م .
45. مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه: د.كريم حسين ناصح ,مجلة الموردالعربي, ع 3 ,2002م .
46. المعاني في ضوء أساليب القرآن : د. عبد الفتاح لاشين , المعارف , مصر, ط3 ,1978هـ .
47. معاني القرآن: الاخفش الأوسط ,سعيد بن مسعدة (ت215هـ),تحقيق هدى محمود قراعة ,المدني ,مصر ,ط1 ,1411هـ– 2008م.
48. معاني القرآن : الفرّاء ,يحيى بن زكريا (ت207هـ) ,تحقيق احمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار , دار الكتب المصرية المصرية , القاهرة , ط3 و,1422هـ – 2001م.
49. معاني القرآن : ابو جعفر النحاس ,تحقيق د.يحيى مراد,دار الحديث,القاهرة ,ط2 ,2004م .
50. معاني القرآن وإعرابه: الزجاج(ت316هـ), تحقيق عبد الجليل شلبي ,الحديث,القاهرة,1424هـ –2004م .
51. معاني االنحو : فاضل السامرائي ,دار الفكر , عمان ,ط2 , 1423هـ –2003م .

52. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ابن هشام الانصاري , تحقيق د. مازن المبارك ومحمد حمد الله , دار الفكر , بيروت , ط6 ,1985م.

53. المقتضب : المُبرد , ابو العباس يحيى بن يزيد (ت285 هـ),تحقيق محمدعبد الخالق عضيمة , عالم الكتب ,بيروت (د ت).

54. منهاج البلغاء : ابن حازم القرطاجني (ت 684هـ) تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة, دار الغرب الاسلامي , بيروت, ط3 ، 1986م.

55. نتائج الفكر في النحو :السهيلي,عبد الرحمن بن عبدالله(ت581هـ) ,تحقيق عادل احمد,وعلي محمد معوض,الكتب العلمية ,بيروت,ط1, 1412هـ – 1992م..

56. نحو القرآن: د. احمد عبد الستار الجواري, مطبوعات المجمع العلمي العراقي , بغداد،1394هـ–1974م .

57. النحويون والقرآن الكريم : د. خليل بنيان , الرسالة الحديثة , عمان , ط1 ,1423هـ–2002م.

58. النشر في القراءات العشر:ابن الجزري (ت833هـ),تصحيح علي محمد الصباغ ,المكتبة التجارية ,مصر (دت).

59. نظرات في الجملة العربية : د.كريم حسين ناصح ,دار صفاء ,عمان ,ط1 ,1425هـ – 2005م.

60. نظرية التلقي أصول وتطبيقات: د. بشرى موسى صالح, ط1 , دار الشؤون الثقافية ,بغداد ,1999م.

61. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث: د. نهاد الموسى, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, ط1 ,1400هـ –1980م .

62. نظرية النحو القرآني : د. احمد مكي سامي الأنصاري ,1415هـ –1985م.

63. نظرية المعنى في الدراسات النحوية : د. كريم حسين ناصح,دار صفاء,عمان ,ط1 ,1427 هـ –2006م .

64. همع الهوامع شرح الجوامع في علم العربية :السيوطي تحقيق د.عبد الحميد هنداوي,االمكتبة التوقيفية,القاهرة,(دت) .

Taking into account the addressee and the plance inas ALqrani

D. HANAA MAHMOOD ISMAEL

Abstract:

This study reveals an important basis of the foundations as Alqrani that the foundations of her ancient,a listener in mind and in place as the Koran. Search was a modest attempt in a statement grammar Alqrani depth research to the ancients in the analysis of the Qur'anic text. Therefore, research efforts investigated the syntactical early in the adoption of these foundations in building sentences and grammatical rules of Arabic grammar induction.